عالم افتراضي

كلمة لها معاني كثيرة. فبعض الناس تراها رمزًا للحرية. والبعض الآخر يراها رمزًا للمستقبل وتحقيق الأحلام. وهناك الأغلبية التي تراها سجن مدى الحياة.

أما أنا فلا أراها شيئًا من الأساس، كلمة عابرة ليس لها معنى.

الأيام تشبه بعضها لحد كبير. وكأنه فيديو عقيم يتكرر تشغيله تلقائيًا بدون توقف، ولذلك حياتي تتلخص في كلمتين فقط «الوحدة والملل».

في البداية أحب أن أعرفكم بنفسي «يحيي علي فريد» لقد تخطيت الثلاثين عامًا بقليل، أعيش مع والدتي فقط. فهي كل شيء بالنسبة لي الأب والأم والصديق، أما أبي فقد رحمه الله وأنا طفل صغير لم أتعدى الثلاثة أعوام. ولذلك لا أتذكره ولكن صورته محفورة داخل عقلي؛ لأن أمي تعلق صورته على الحائط في غرفة نومها.

فهي كانت ومازالت تحبه بجنون ولهذا لم تتزوج بعد وفاته. دائما تتحدث عنه وأحيانًا كثيرة يكون كلامها عنه بعيدًا عن المواضيع التي نتحدث فيها، فهي على يقين أنه يعيش بيننا حتى الآن وكأنه لم يمت.

أمي تتعلق بي بشدة؛ لأني ابنها الوحيد. فلم يأذن الله أن تنجب مرة ثانية من أبي. ولهذا فأنا أمثل لها الحياة، ولذلك فهي تخاف عليّ بطريقةٍ مبالغ فيها وكأني طفل صغير.

لا أنكر أنني أتضايق من خوفها الزائد تجاهي؛ لأنه دائمًا يضعني في مواقف محرجة مع الناس. ولكني في النهاية استسلم لإرادتها. فأنا أحبها وأعلم أنها تحبني بجنون، ولذلك أجد لها المبررات الكافية لتلك التصرفات الغريبة. ولكن ما لا يعلمه أحد غيري أن كل تصرف من هذه التصرفات كان يهز ثقتي بنفسي، ويجعلني أميل إلى الانطوائية. أما عن الأمثلة فهناك الكثير والكثير.

وأنا طالب في المدرسة كانت أمي تصر على أن تذهب معي إلى المدرسة. ولا تطمئن إلا عندما تتأكد من دخولي الفصل، ولا تنصرف إلا عندما يدخل المدرس، ويبدأ في الشرح.

في هذه الفترة سيطر عليها هاجس بأني معرض للخطف أو القتل. وأنها تأتي معي لتحميني، وتظل تنتظر أمام باب المدرسة. ولا تطمئن إلا بخروجي من باب المدرسة. فتمسك يدي وتجرني إلى البيت وكأني كلب مربوط بسلسة يجره صاحبه.

في هذه الفترة شعرت بآلام نفسية شديدة جعلتني أكره المدرسة، وأكره الذهاب إليها. لكن أمي لم تتأثر بكل هذا، ومازالت تتصرف معي بهذه السخافة. أما بالنسبة لصورتي أمام الطلبة، فكنت بالنسبة لهم الحلقة الضاحكة، وكأني مهرج في السيرك. وفي الحقيقة لم يكن السبب في ضحكهم الهستيري خفة دمي، وإنما تعلق أمي الزائد بي. فيروها تتبعني في كل مكان، أمام المدرسة وبداخلها، حيث أطلق عليها الطلاب «الشاويش عطية». مما جعلني أمامهم مادة للسخرية في كل فترات تعليمي من ابتدائي حتى ثانوي. وكلما انتقلت من مرحلة إلى مرحلة ازداد الضحك والسخرية. أما عن الشاويش عطية أقصد أمي فلم تفارقني إلا أن دخلت الجامعة فاختلف الأمر نوعًا ما.

أمي: مالك يا يحيي سرحان ليه علطول؟

ـ مفيش حاجة.

أمي: كده يا يحيي، هتخبي على ماما حبيبتك.

ـ بصي يا ماما أنا خلاص داخل الجامعة، ومش هينفع تودوني وتجيبني، أنا كبرت على كده.

أمي: يعني إيه كبرت؟ أنا أمك وبخاف عليك وهفضل طول عمري أخاف عليك لأنك ابني الوحيد.

ـ ده وأنا في المدرسة العيال كانت بتتريق عليّ وعامليني أراجوز، ما بالك بقى لما أدخل الجامعة هيعملوا فيّ إيه؟!

أمـي: أنـت أنضـف منهم كلهـم، دول عيال مش متربـين، ولو حد اتريق عليك في الجامعة، قولي وأنا أمسحلك بكرامته الأرض.

ـ لأ يا ماما ما تروحيش معايا الجامعة تاني، يا إما مش هاروح خالص.

أمي: يحيي أنا مش عايزة أسمع منك الكلام الفارغ ده تاني.

وهكـذا انتهى الحـوار بيننا بـلا أي نتيجة. وكأنه لم يبـدأ من الأصل كمثل أي حديث بيننا. هي من تقرر دائمًا وأنا عليه السمع والطاعة.

أما في المرحلة الجامعية فقد اختلف الأمر نوعًا ما. فبعد فترة طويلة من المفاوضات والمعاهدات، تعهدت وأقسـمت على تنفيذ كل أوامرها النابعة من خوفها الشديد عليّ، وكأني أحلف اليمين لرئاسة الجمهورية. فقرارات الموافقة على ذهابي إلى الجامعة بمفردي بدونها وكذلك عودتي، كان هذا القرار بالنسـبة لي انتصار بمعنى الكلمة، وكأن أبواب السعادة فُتحـت مـن أجـلي. ولكـن القـدر لم يتركني أحلـم كثـيرًا، فأغلق باب السعادة في وجهي بمنتهى القسوة.

في أول يوم لي في جامعة عين شـمس قسـم آداب، والذي يعتبر عالم غريـب عنـي لم أراه من قبل. حيث رأيت أشـياء جديـدة، فتيات جميلة ترتدي ملابس على الموضة، تضع مكياجًا هادئًا لتضيف إلى جمالها طابعًا خاصًـا. وهناك من تضع مكياجًا صارخًـا وترتدي ملابس ضيقة لتبرز

أنوثتها؛ فتلفت انتباه الشباب. وهناك نسبة كبيرة من الفتيات تنتمي إلى البيئة الريفية وينعكس هذا على ملابسهم الواسعة وألوانها الغير متناسقة، وتلك الفتيات لا يضعن مكياجًا بالمرة؛ لأنهم يروه تصرف خاطئ خارج عن البيئة التي تربوا عليها. فعادتهم وتقاليدهم لا تسمح بذلك، ولكن من داخلهم يتمنون تكوين صداقات مع الشباب داخل الجامعة؛ لأنهم يعلمون أن تلك الفترة لن تتعوض ثانيةً.

الجميع ينتظر هذه الفترة بفارغ الصبر. فهي تعني بالنسبة لهم الحرية، اختلاط الشباب والبنات داخل أسوار الجامعة وخارجها. والتي تنبت فيما بعد قصص حب ومشاعر غريبة لم يعرفوها من قبل، وصدقات بريئة الهدف منها اختلاس لحظات السعادة، لتوضع بعد ذلك بحرصٍ شديدٍ في كتاب الذكريات صفحة «أوقات سعيدة». وهناك رغبات شريرة يزرعها الشيطان داخل عقولهم بإلحاحٍ شديدٍ وهناك الكثير والكثير.

ومع ذلك انطويت على نفسي بعيدًا عن هذا العالم. وكأني كائن مختلف عن هؤلاء البشر. والسبب في ذلك يرجع لعدة عوامل أولها التربية الخاطئة والتي صنعت مني إنسانًا مهزوزًا وخجولًا يرفض التعايش مع المجتمع. ثانيًا تلك الملابس الغريبة التي كنت أرتديها، والتي تجبرني أمي عليها رغمًا عني، فهي كانت تسيطر على كل شيء في حياتي حتى اختيار ملابسي، فهذه الملابس تعتبر مادة خصبة للسخرية

مـن قبل طـلاب الجامعة. ثالثًـا وهذه أهم نقطة أن والـدتي لم تتركني في حـالي داخل أسـوار الجامعة، صحيح أنها لم تسـحبني خلفهـا كالطفل الصغـير إلى الجامعـة في الذهاب والإياب، ولكن ما فعلته أسـوأ وأضر سـبيلًا. فقد كانـت تقتحم عليّ المدرجات ثم تنـادي عليّ بصوت عالي، فيضحك الجميع وكأني نكتة جديدة تُسمع لأول مرة. الآمر من هذا أنها كانت تحضر معها شـنطة بلاسـتيك مليئة بسندوتشـات الجبنة والبيض والمربـى وكأني طالب في الابتدائية. والطبيعـي أن أكون رمزًا للضحك والسـخرية داخل الجامعة، فكرهتها بشـدة، وكنـت أتمنى من داخلي أن تمر السنوات الدراسية في لمح البصر حتى أنتهى من هذا العذاب.

لا أعرف كيف بنيت هذا الحاجز السميك بيني وبين الجنس الآخر.

هل الخطأ يكمن في تركيبة شخصيتي الناتجة عن التربية الخاطئة؟

أم الخطأ في عدم فهم فتيات الجامعة لظروفي المعقدة؟

لم أعرف فتاة واحدة خلال سنوات الجامعة. مع إن كل شاب في فترة الجامعة تعرف على عشرات الفتيات. كم أكره هذه العزلة التي سجنتني خلف قضبانها بإرادتي أم رغمًا عني، لا أعرف؟

وبعد أن تخرجت من الجامعة ظهرت حلقة جديدة من الحياة عليّ المضي في طريقها العصيب، وهي مرحلة العمل أو بالمعنى الأدق البحث عن وظيفة.

كل شـاب يتخرج من الجامعة يبـدأ في مرحلة جديدة، وهي البحث

عن عمل، كم هي مرحله شقاء وتعب! لأنه في هذه المرحلة يرى الوجه الحقيقي للحياة. وجه جامد يخلو من اللهو والمرح، وكأنه كتلة صخرية تمتص حرارة الشمس وقت الظهيرة. أما بالنسبة لي فالموضوع مختلف فأنا لم أرى الوجه الرقيق للحياة حتى أخشي الوجه الجامد. فكل وجوه الحياة تشبه بعضها، ومادام لا يوجد تغير، إذن فليس هناك جديدًا.

بعدما حصلت على الشهادة جلست في البيت مثل أي فتاة تنتظر النصيب يدق على باب بيتها، فيهديها القدر بعريس ينتشلها من عالم العوانس لتدخل مرحلة جديدة. ولكني لم أنتظر الزواج. فمن تلك المعتوهة التي ترضي أن تتزوج شاب مثلي لا يصلح لأي شيء في الوجود. كان انتظاري لظهور وظيفة مناسبة تدق على بابي. كل الشباب تبحث عن فرص عمل وتجري خلف إعلانات الجرائد والمجلات ومواقع التواصل الاجتماعي، وأنا محلك سر، أنتظر العمل يأتي إلى باب البيت، ويرن الجرس ويأتي دوري حينها لفتح الباب.

جلست سنة ونصف في البيت منتظرًا رحمة القدر. ولكن قدري لم يراني وكأني حشرة تخطو في قلب الصحراء فلا يراها أحد. لم أفعل أي شيء في تلك الفترة سوى الجلوس أمام شاشة الحاسوب بالساعات الطويلة غير مهتم بأي شيء يتعلق بمستقبلي، حتى جاءت اللحظة المنتظرة. صحيح إنها تأخرت كثيرًا ولكنها جاءت في النهاية، صحيح إنها لم تأت عن طريقي لأني بكل بساطة لا أتحرك من البيت، فأنا دائم

الجلـوس في البيـت مثل السـمك الذي لا يخرج من المـاء، ولكني قمت بدوري على أكمل وجه في الانتظار دون أدنى اهتمام حتى جاء النصيب.

أمـي الغالية دفعت رشـوة كبيرة حتى تسـتطيع تعييني في الحكومة. فأتحول في تلك اللحظة من عاطلٍ يجلس في البيت إلى عاطلٍ يجلس على مكتب داخل المصالح الحكومية عديمة النفع.

ومـع ذلـك فالوحـدة لم تفارقنـي، مـا زلت محبوسًـا داخـل حوض زجاجي شفاف يشبه حوض السمك. والسبب في هذا أنني حتى الآن لم أتكيـف مع هذا المجتمع الذي أعيش فيه. والأصعب من هذا أن معظم زملائي في العمل من جيلٍ مختلفٍ عني، فهم يسبقوني بأكثر من ١٥ عامًا على الأقل. ولذلك فهناكً اختلاف كبير في الفكر بيني وبينهم.

أما الجزء الكوميدي في الموضوع بالنسـبة لزملائي في العمل أن أمي مازالت تجبرني على أخذ شـنطة السندوتشـات معي في العمل. صحيح إنهـا لم تقتحـم عـليّ المصلحة الحكوميـة مثل أيـام الجامعـة، ولم تلتصق بي في رحلـة الذهـاب والإيـاب إلى العمل. ولكن ذكاءها كان أشـد مما تصـورت، فقد أخذت أرقام الزملاء من النسـاء كبيرة السـن حيث أن أعمارهم تقترب من عمر أمي «رمز الإزعاج في حياتي».

ومـن الطبيعـي جدًا أن أسـمع تعليقات سـخيفة من الزمـلاء من باب الظرف والتسلية، أما أنا فكنت ابتلع كل هذا رغمًا عني، حتى الآن ما زلت مادة للسخرية والضحك في كل مكان أذهب إليه.

في هذه الفترة أدمنت ذلك العالم الافتراضي، حيث أصبحت أجلس أمامه طول الليل، أعيش داخله بمنتهى الحرية لا أخاف من أحد. أتصرف بحريتي دون خجل، أتعرف على الفتيات دون أدنى مشكلة. يا له من عالم سهل وبسيط ! كم أعشق هذا العالم! وكم أكره الواقع بكل سخافته!، يا ليتني أستطيع أن أعيش حياتي كلها خلف شاشة الحاسوب متنقلًا مثل الفراشة بين صفحات المواقع المختلفة.

هذه حياتي كاملة باختصارٍ شديدٍ، مختلطة بمشاعر معقدة من الوحدة والملل، الانطوائية والتقوقع بين خيوط العالم الافتراضي.

أما عن حياتي اليومية فكلها تسير على وتيرة واحدة، كما قلت من قبل. آلاف النسخ المكررة من أصل واحد، وهذا اختصار لحياتي اليومية بكل ما فيها من أحداث مملة:

استيقظ من النوم مبكرًا؛ لأذهب إلى عملي في أحد المصالح الحكومية. عمل بلا قيمة ولا هدف، مجرد شخص جالس على مكتب في حجرة صغيرة ممتلئة بأشخاص من نفس الفصيلة (موظفين حكومة). كلام كثير في مواضيع مختلفة تلتقطه أذني غصب عني، وأغلبية هذه الأحاديث الجانبية ليس لها قيمه من الأساس.

أعيش منطويًا داخل هذا المبنى العتيق، والذي كان في الماضي قصرًا لأحد الباشوات، ثم تحول بعد الثورة إلى إحدى المصالح الحكومية

عديمة النفع. فأنا أشعر أني مختلف عن تلك الفصيلة الحكومية والتي تشبه السلاحف في حركتها. ينتهي عملي في الثانية ظهرًا، لأعود إلى البيت ومن هنا أقع داخل دائرة محكمة من الملل والوحدة.

قليل من الأكل يكفي لإشباع جوعي، ثم ألقي بجسدي على الفراش لأنعم بنوم عميقٍ؛ لأسرق بعض ساعات الوقت المملة. وبعد استيقاظي من النوم أتجه مباشرةً إلى جهاز الحاسوب لأجلس أمامه ساعات كثيرة. اتنقل من خلاله في العديد من المواقع داخل هذا العالم الافتراضي عالمي الخاص.

دائمًا أبدأ بفتح صفحتي على الفيس بوك، أتابع كل جديد من منشورات الأصدقاء وما يترتب عليها من تعليقات سخيفة دائمًا، أعلق بإعجاب لأي منشور يظهر أمامي حتى قبل أن أراه. أتضايق كثيرًا من سخافة هذه المنشورات وتفاهتها. فأي شخص يكتب أي شيء ثم ينشره على صفحات الفيس بوك ليراه المئات من الأشخاص، كلها أشياء عادية لا جدوى من كتابتها، مثلًا أشخاص يشعرون بالتعاسة، وأشخاص يعانون من غدر الحبيب، وأشخاص آخرون لا يفعلون شيء سوى الاستهزاء بمن حولهم، وهناك أشخاص مصابون بجنون التصوير، يلتقطون لأنفسهم صور، في أي وقت، وفي كل وقت، في البيت، في العمل، في الجامعة، في الشارع، وفي كل مكان، ثم ينشروها على صفحات الفيس بوك؛ لتحقق الكثير من الإعجابات ومن التعليقات السخيفة.

في البداية كنت أخجل من كتابة منشور ونشره على صفحات الفيس بوك. وكنت أكتفي بالإعجاب وتعليقات محدودة لا تزيد عن هذه الكلمات رائع، أكيد، متابع وهكذا. ولكن مع الوقت اندمجت مع الفيس أكثر وأكثر حتى جاءت هذه اللحظة التي أكتب فيها منشورات لا قيمه لها، وأنشرها على صفحات الأصدقاء، وأظل مترقب الإعجابات والتعليقات بقلقٍ ملحوظٍ، وكأني رجل أعمال يضع أمواله في البورصة منتظرًا عبث القدر لتحديد مستقبله.

هناك بعض الجروبات انضممت إليها كعضو يبحث عن التسلية والسعادة المزيفة. فهي جروبات للتعارف بين الشباب والبنات. كم أنا حريص على الانضمام إلى تلك الجروبات من أجل اصطياد الفتيات الباحثة عن التسلية والمشاعر الكاذبة، ولكن للأسف دائمًا هذه العلاقات لا تتعدى معي إطار العالم الافتراضي، لا يمكنني اصطحابها على أرض الواقع وكأني خلقت لأعيش في هذا العالم الافتراضي.

أقضي معظم الوقت بين صفحات الفيس بوك. ولكن هناك عادة دائمًا تلازمني أثناء التجول بين مواقع النت، وهي الاستماع إلى الأغاني بصوت عالي يخترق آذان جميع سكان العمارة، فأنا دائمًا مواظب على تحميل كل جديد في عالم الأغاني.

وفي النهاية أخطو خطوات سريعة على موقع اليوتيوب، أشاهد فيديوهات مختلفة، شيء يشبه الكوكتيل، سياسة على كورة علي فتيات

ترقـص بطريقـة مثيرة على شـباب تتصنع خفة الدم ولهـم جمهور كبير، فهي شيء يشبه «سمك لبن تمر هندي».

في النهاية يغلبني النوم أغلق جهاز الحاسوب ثم أتمدد على الفراش في ثبات عميق، لينتهي اليوم الذي يشـبه باقي الأيام. وكأنها نسخة مكررة من آلاف النسـخ لأصلٍ واحدٍ. حياتي لم تتعدي إطار العالم الافتراضي، وكأني أهـرب بـه مـن مشـاكل الواقـع. أعلـم أن هنـاك الكثيرين مثلي مسـجونين ما بـين قضبان هذا العـالم الافتراضي، منعزلـين عن الواقع، وكأنه ملاك الموت يخشاه الجميع.